مركز نماء للبحوث والدراسات
Nama Center for Research and Studies
نماء وانتماء

وعي
نحو ثقافة مؤصّلة

علم الاستغراب

مجلة علميَّة محكَّمة تصدر سنويًا عن مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث.
تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر

مواضيع العدد:

مراكز البحث في إسرائيل وتأثيرها في دائرة صنع القرار
د.صالح نعامي

نحو منهجية مقترحة لعلم الاستغارب
د. نايف بن نهار

مدرسة التفكيك
أ.د.عز الدين معميش

قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي
- مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا-
أ.د.عبد القادر بخوش

استغراب بلا اغتراب ولا غربفوبيا
أ.د.عدنان المقراني

العدد الأول

مجلة علمية محكمة تصدر عن "مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث"

تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر

مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

- البريد الالكتروني : wa3efoundation@hotmail.com
- الموقع الالكتروني : www.wa3efoundation.net

مركز نماء للبحوث والدراسات

- البريد الالكتروني : info@nama-center.com
- الموقع الالكتروني : www.nama-center.com

مجلة علم الاستغراب

- المشرف العام : د. نايف بن نهار
  رئيس مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث
  والعميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا بجامعة قطر
- رئيس التحرير: أ.د عبد القادر بخوش
- لجنة التحرير :
  أ.د عز الدين معميش
  أ.د محمد أمزيان
  أ.د ثناء الندوي
  د. أحمد زايد
- المراجعة والإخراج الفني: خالد التايدي
- البريد الالكتروني للمجلة: wa3efoundation@hotmail.com
- الموقع الالكتروني : www.wa3efoundation.net

فهرس المحتويات

المستهل

- كلمة المشرف العام — 7
  د.نايف بن نهار
- كلمة رئيس التحرير — 13
  أ.د عبد القادر بخوش

في البنية النظرية

- نحو منهجية مقترحة لعلم الاستغراب — 18
  د.نايف بن نهار

في البنية العملية

- مراكز الأبحاث في إسرائيل وتأثيرها على دائرة صنع القرار — 47
  د. صالح النعامي

مقاربات

- قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا — 90
  أ.د عبد القادر بخوش
- مدرسة التفكيك — 114
  أ.د عز الدين معميش

مقالات

- استغراب بلا اغتراب ولا غَرْبَـفُوبيا — 136
  أ.د عدنان المقراني

مقاربات

قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي
مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا

الأستاذ الدكتور: عبد القادر بخوش
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة قطر

أولا: الغرب في الأدبيات العربية و الإسلامية المعاصرة

شهدت مسألةُ قراءة الغرب والاستفادة من تراثه اتجاهين في العالم الإسلامي، كلاهما بلغ من التطرف مبْلَغه. أحدهما: **الاتجاه الديني** أو **النهضوي** الذي اتسم في غالبه الأعم بالانغلاق ورفض الاقتباس عن الحضارة الغربية بذريعة الحفاظ على الهوية الإسلامية. والثاني: **التيار الحداثي** الذي انبهر رواده بالحضارة الغربية؛ ورأوا استنساخها بحُلْوِها ومُرِّها، بصحيحها وسقيمها، واتباع خُطى الغرب حَذو القُذَّةِ بالقُذَّة.

➤ **أما التيار الأول** فقد كان أنصارُه ضحية الجهل بمقاصد الشريعة، والجهل بمسائل الولاء والبراء، وطبيعة التعايش مع الآخر.

إن عدم الاعتراف بتقدم الغرب وتفوقه؛ قفزٌ على الحقائق الثابتة وتجنّ على الوقائع لا يخدم الفكر الإسلامي، وهذا عمرو بن العاص ﷺ، يصف الروم قائلا: «إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا؛ إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَ أَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[1]، فلم يمنعْهُ التدافع الحضاري من الاعتراف بما لديهم من مواطن قوة وخصال محمودة.

(١) جاء في « **صحيح مسلم** » من حديث الليث بن سعد عن موسى بن عُلَيّ عن أبيه : أن المستورد القرشي – وكان عنده عمرو بن العاص ﷺ – ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » . فقال عمرو بن العاص مقالته.

وقد لاحت بوادرُ هذا الاتجاه مع بداية القرن التاسع عشر، وهو عصر التقدم العلمي والتقني في الغرب، وعصر التخلف والانحطاط والفساد والاستعمار في الشرق. هذا الوضع المتأزم الذي طبع هذا الاتجاه في التعامل مع الغرب؛ انبثق عنه سؤال جوهري طرحه كاتب الشرق **شكيب أرسلان** وكرّس كل حياته للإجابة الدقيقة عنه، ولم يصل لنتيجة ترضيه، بل بقي مسكونا بهمّ البحث عن إجابة شافية ومنطقية له.

ما سر تقدم الغرب مع كفرهم، وبالمقابل تأخر العرب والمسلمين؟، وما الوسيلة المثلى والناجعة التي تمكن المسلمين من أن يصبحوا جزءًا من العالم المتحضر، مع الحفاظ على تراثهم العقدي والتاريخي؟.

انتهى رأي علماء هذا التيار إلى الاتفاق على أن تقهقر العرب والمسلمين وضعفهم يعود إلى أنهم هجروا تعاليم الإسلام الصحيحة وافتتنوا بالحضارة الغربية؛ فارتموا في أحضانها.

يمثل هذا الاتجاه معظم الأدبيات الإسلامية التي قدمها المفكرون المسلمون المعاصرون، والتي تتبنى قضية العودة إلى الذات وتجعلها محورا أساسيا لمشروع النهضة الحضارية، مع ما يصحبها من نظرة التوجس والريبة والحذر تجاه الآخر الغربي.

اتخذ هذا الاتجاه في عمومه منهجا متشددا في التعامل مع الآخر، خاصة في مواجهة الفكر الغربي ومناهجه، حيث اتسم بموقف التصدي للتحدي الحضاري الغربي، خلّف هذا التحدي نزوعا إلى الانتصار للهوية الإسلامية بالعودة إلى أسباب العزة الكامنة وبعثها من جديد.

إن هذا الاتجاه اضطلع بدور عظيم لا ينكر في زمن الانبهار بالغرب وحضارته، ومحاولة هذا الأخير القضاء على أصالة الشعوب وحضارتها والدعوة إلى الارتماء في أحضان الفكر الغربي باعتباره النموذج الوحيد والأمثل لأي نهضة وتقدم.

ولذلك أضحت غاية هذا الاتجاه؛ إبراز الحقائق الإسلامية وبعثها من جديد وإحياء النفوس بها، وتأكيد أن هذه الحقائق صالحة لكل زمان ومكان، وأنها الكفيلة بانتشال الأمة من حالة الانحطاط والتردي، وتدفع بها إلى النهوض والتقدم.

وهكذا أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر، التي شكلت قضية التجديد الأساسية؛ هي رد الاعتبار للدين والتراث، حتى تعود للمسلمين حريتهم، ويسترجعوا مجدهم الضائع.

أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر - التي شكلت قضية التجديد الأساسية - هي رد الاعتبار للدين والتراث

ومع أن أصحاب هذا الاتجاه اضطلعوا بأدوار في غاية الأهمية، تمثلت أساسا في نجاحهم في دعوة المسلمين إلى الاتحاد ضمن إطار الجامعة الإسلامية التي يمكن أن تضم المسلمين من كل القوميات، ونبذ التعصب الديني والمذهبي؛ مما خفف حدة التوتر بين المذاهب الإسلامية حول المسائل الفقهية والدينية. وإن لم ترق الدعوة للاتحاد إلى مستوى الممارسة التنظيمية الفعالة والطموحة؛ بسبب غياب مشروع استراتيجي يجسدها على أرض الواقع، فقد كان دورها فعالا في شحذ الهمم وجمع الطاقات للتصدي للاستعمار.

يرى الأستاذ **طارق البشري**، أن الدعوة الإسلامية ظهرت في أواخر العشرينيات دعوةً لاسترداد الأرض المفقودة أو الأرض المغزوة بالمعنى العقائدي الحضاري السياسي، ولذلك ظهرت دعوةً لمطلق الإسلام(٢)، لقد اتسم الفكرُ الإسلامي المعاصر، عموما، بسمة العداء الشديد للاستعمار والدعوة إلى محاربته بكل السبل المتاحة؛ فالخطاب السياسي المعادي للاستعمار له حضور بارز ضمن نسيج هذا الفكر.

ارتبط هذا الخطاب أصلا بواقع المسلمين الذين يعانون تخلفا وتشويها على المستوى الديني وتسلطا غربيا استعماريا على المستوى السياسي، فكان لهذا الخطاب مبرراته الزمانية والمكانية.

ولنا أن نتساءل: لماذا بقي هذا الخطاب وموقفه المتشدد من الغرب مهيمنا على الأطروحات الإسلامية؟، وهل الآخر كله استعمار؟، وهل بإمكان هذا أن يتجاوز أدبياته المتشددة حول الآخر، خاصة بعد خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية؟.

إن الانتصار لهذا الخطاب واستحضاره في واقعنا الحالي لا يمكن أن يتعدى مستوى التقييم والاستفادة من الأخطاء، وللإنصاف، استنفد هذا الاتجاه جهوده؛ لأنه ارتبط بظروف زمانية خاصة، ولم يستطع أن يواكب التحديات المتراكمة والمتغيرات المتسارعة، وتحول في أغلبه إلى نزعة طوباوية جميلة لا تتعدى الجانب الخطابي؛ هدفها تمجيد الماضي وتجاهل الحاضر.

(٢) منير شفيق، **الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات**، الكويت: دار القلم، ١٩٩٣، ص ٣٥-٣٦.

➢ **وأما التيار الثاني الحداثي**: فيمثله رهط من المفكرين العرب والمسلمين انبهروا بالحضارة الغربية؛ وبالفكر الغربي وما حققه من إنجازات. ويسود هذا الاتجاه الدراسات المسكونة بالأفكار الاستشراقية، وما تمخض عنها من دراسات تعزى إلى تلامذة المستشرقين.

فقد هال رهطا من المسلمين حالةُ الانحطاط والفوضى التي ألمت بالمسلمين؛ مقارنين بين حالة التقدم التي عليها أهل الغرب، فرأوا نجاة الأمة وخلاصها في ذلك المنهج الذي أخذ به الفكر الغربي، وراحوا يستنسخون هذا المنهج ويقحمونه في الدراسات الإسلامية.

وكان من شأن هذا الانبهار أن برزت أزمة منهجية حادة في الدراسات الإسلامية، يعتريها شعور دفين بالمغلوبية الحضارية إزاء الفكر الغربي، وقد أعاق هذا الشعور العقول عن أن تعي بموضوعية مختلف المعطيات؛ سواء التي أنتجها الفكر الإسلامي الأصيل، وما أنتجه الفكر الغربي الوافد، لتقارن بين الجانبين وتأخذ ما ينفعها وتدع ما يضرها. كان الأولى لو انصرفت هِمَمُهم إلى اقتباس آليات التقدم العلمي والتقني، لكن للأسف انصبت دعواتهم على استنساخ المنظومة القيمية الغربية.

إن التحدي الأكبر الذي واجهه الفكر الإسلامي المعاصر يتمثل في مواجهة التحديات الفكرية التي أفرزتها الحضارية الغربية في شتى المجالات، فأما اتجاهات الفكر الإسلامي التراثي فقد هونت من شأن هذه المواجهة والتصدي لها ومعاداتها، وكما يقول الأستاذ محمد مبارك اعتبار كل ما أتى من الغرب مرفوضا[٣]، وأما الاتجاه الحداثي فلم يعد قادرا اليوم على اتخاذ الموقف نفسه، ليس بسبب أن الغرب فرض نفسه كحضارة عالمية فحسب لا يمكن تجاوزها، ولكن لأنه عكف على دراسة الحضارة الإسلامية بمناهج متحيزة ضدها؛ مما كان له أثره الخطير على الفكر الإسلامي.

إن التحدي الأكبر الذي واجهه الفكر الإسلامي المعاصر يتمثل في مواجهة التحديات الفكرية التي أفرزتها الحضارية الغربية في شتى المجالات

هذا التعامل غير الناضج مع الغرب كرس قصورا منهجيا، ولهذا أصبحت مشكلات المجتمع الإسلامي بحاجة إلى مفكرين مسلمين على قدر كبير من الوعي والفهم للحضارة الغربية. وهؤلاء وأمثالهم هم بإمكانهم أن ينفذوا بنظرتهم العميقة والشاملة إلى جوهر المشكلة وأن يتتبعوا بوعي نقاط نشأتها وخطوط تطورها.

(٣) محمد المبارك، **المجتمع الإسلامي المعاصر**، بيروت: دار الفكر، ص ١٠٦.

إن المشكلة الحضارية برزت في السؤال الذي طرحه زعماء الإصلاح وشعورهم بمدى تخلفهم خلال قرون متعددة، كانوا فيها في سبات عميق دون أن يأخذوا بوسائل التقدم المادي ولا حتى بأسباب التطور الفكري والثقافي.

برزت نخبة من العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين استشعروا ووعوا منذ البداية جدية التحديات الآتية من الغرب ونموذجه الحضاري وخطورتها، وانكبوا على معايشتها وإدراكها من أجل استيعابها لبلورة موقف واع وبنّاء، ويأتي في طليعة هؤلاء، **محمد إقبال**، و**مالك بن نبي**، و**محمد عبد الله دراز**، و**إسماعيل الفاروقي**، و**روجيه جارودي**، و**عبد الوهاب المسيري**، وهكذا بدأ يتشكل تيار جديد في الفكر الإسلامي المعاصر أطلق عليه **مدرسة التجديد الحضاري**، وراح يستشف جوهر الأزمة وليس أعراضها.

ثانيا: مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي وقراءة الغرب

بدأ في الفكر الإسلامي المعاصر خطابٌ جديدٌ يتجاوز غربة الزمان التي طبعت أدبيات فكر ديني تراثي لم يفلح في تجاوزها، حين عجز عن توظيف آليات اجتهاد القرون السالفة ومناهج تفكيرها وتفسيرها بطريقة صحيحة، ليتجاوز غربة المكان التي ميزت الفكر الحداثي حين استحضر آليات الحداثة الغربية، مع خصوصيتها ومحاولة إقحامها في بيئة مغايرة.

تيار التجديد الحضاري الذي أعنيه؛ هو تيار شامل له حضوره المميز في الفكر الإسلامي المعاصر، لا يقتصر على خطاب اجتهادي يخص قضية فقهية مع أهميتها، أو دعوة سياسية لمقاومة الاستعمار والتبعية للغرب مع ضرورتها، إنه خطاب تجديدي غير مجزأ ينطلق من اعتبار الإسلام مشروعا حضاريا متكاملا، لا يخص بيئة مكانية ولا ظرفا زمنيا ولا جنسا بعينه. تميز هذا الخطاب بتبني أدبيات الدين الأساسية مع عدم تجاوز المعارف الإنسانية القيمية.

يمكن تأريخ بداية بروز هذا اللون من التجديد بمحاولة دراسة الآخر إبان تردي الحضارة الإسلامية الذي عايشه ابن خلدون، فقد ألهمت الحالةُ ابنَ خلدون بأن يضع أول نظرية في فلسفة الحضارة. إن انهيار حضارة أمة تعد كارثة شاملة لكل المجالات لا تختص بجانب واحد؛ لأنها تتبعها كوارث على كل المستويات. مع انهيار الحضارة الإسلامية؛ ظهرت بدع في الدين وجمود في الفقه وشلل عقلي وتمزق سياسي مهّد للاستعمار. لذلك تحدثت دعوة ابن خلدون التجديدية بلغة جديدة تغوص في فهم الظاهرة لتقدم علاجا مناسبا.

ومع عصر ابن خلدون بدأ العد التنازلي في تدهور الحضارة الإسلامية على المستوى السياسي؛ بتمزق الدولة والاستبداد بالحكم والتخلف الاقتصادي؛ بسبب الفساد والترف وتراجع الإنتاج العلمي، وأصيب العقل بالعقم عن النقد والإبداع، في الفلسفة أو الفكر أو الأدب، أما الفقه فقد جمد الاجتهاد فيه بحجة الانتصار لآثار السلف بدون فهم ، وعجز علم الكلام عن تشخيص مشكلة المجتمع الإسلامي في العصر الحديث ومعالجتها.

أسهم هذا الوضع المتأزم للمجتمع الإسلامي في فتح الباب على مصراعيه لدخول الاستعمار الذي أحدث شرخا عميقا وخطرا شاملا. ومع أن الخطاب الإسلامي شكل رصيدا هاما في مقاومة الاستعمار، فانبثقت ثورات التحرير من أحشائه، فإن ما يؤخذ على هذا الخطاب عموما أنه بدأ متعدد الجوانب مشتت الجهود، فقد اقتصر كل فريق على جانب في التجديد وأهمل الجوانب الأخرى، كمن جعل التجديد في الفقه أو في علم الكلام أو في السياسة ونحوها، وفات هؤلاء أن المشكلة عامة مست كل شيء.

لذلك انفرد اتجاه التجديد الحضاري عن بقية المصلحين الكبار بدارسة الآخر في أفكاره النهضوية، سواء على مستوى منهج التحليل أو على مستوى المعالجة وتقديم البدائل.

برز في الأفق نخبة من الأسماء سبقت الإشارة إليهم، ويحدونا الأمل أن تقوم الجامعات ومراكز الأبحاث بتسليط الأضواء على مشاريعهم في دراسة الغرب، باعتبارها مهدت السبيل وعبدت الطريق لأي دراسة إسلامية واعية للغرب، وحسبنا في هذا المقام أن نختصر الحديث عن قامتين، أحدهما من المشرق الإسلامي؛ وهو الدكتور **عبد الوهاب المسيري**، والآخر من المغرب الإسلامي؛ وهو الأستاذ **مالك بن نبي**.

مشاريع اتجاه التجديد الحضاري مهدت السبيل وعبدت الطريق لأي دراسة إسلامية واعية للغرب

وإن يكن أثر الأديولوجيا والتحيز، من بين ملاحظات منهجية وعلمية على هذين المشروعين، بارزا حينا ومتخفيا حينا أخرى، كأي مشروع علمي. فقد كان أثرهما بالغا في لفت الأنظار وإيقاظ الهمم إلى وجوب دراسة الغرب دراسة علمية.

❁ وبصدد دراسة المشروعين وتقييمهما نضع الاعتبارات الآتية:

➢ **الاعتبار الأول**: معايشتهما الحقيقية للغرب وتعرُّفه من قرب.

➢ **الاعتبار الثاني** : كل مشروع يعد ضخما، على الأقل في مرحلته التاريخية، وهي الاستشعار بأهمية دراسة الغرب.

➢ **الاعتبار الثالث**: تقييم المشروعين للاستفادة من العثرات.

إن أهمية المشكلات التي يتصدى لحلها هذا الاتجاه الحضاري وسعة الآفاق لجمع شتاتها حتى تبدو نمطا مركبا، هذا ما عبر عنه الأستاذ مالك بن نبي في قوله إن روح عصر ما بعد الموحدين، المصابة بالذرية **Atomisme** لا تسلك سبيل التكامل بانتهاج التركيب المتآلف **synthese** (٤).

ويعزز هذا الكلام؛ قول الدكتور عبد الوهاب المسيري في وجوب الابتعاد عن النماذج الاختزالية التي ترى الظواهر في إطار ثنائيات صلبة بسيطة، فالنماذج المركبة هي التي تنظر للظواهر في كليتها الحية(٥)،

وبهذا يستطيع المفكر أن يسهم في تنوير مجتمعه بشأن أهم القضايا التي تشغله، وتحديد الأهداف الكبرى التي يسعى إلى بلوغها. فالدين عند محمد إقبال ليس أمرا جزئيا، ليس فكرا مجردا فحسب، ولا شعورا مجردا، ولا عملا مجردا، بل هو تعبير عن الإنسان كله.(٦) يبرز هذا المعنى أكثر وضوحا عند الأستاذ مالك بن نبي في اعتقاده الراسخ بأن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها"(٧)، من هذا المنطلق الواعي بحقيقة الأزمة وأنها حضارية، يدعو مالك بن نبي إلى ضرورة فقه الحضارة الإسلامية منذ بزوغها إلى أفولها. ومن هنا يمكن تعريف الحضارة "بأنها مجموعة العوامل المعنوية والمادية التي تسمح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد فيه جملة الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره، فالفرد يحقق ذاته بفضل إرادة وقدرة ليستا نابعتين منه، بل ولا تستطيعان ذلك، وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه"(٨).

---

(٤) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة عمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر للطباعة، ط١، ١٩٨٨، ص ١٢٨.

(٥) عبدالوهاب المسيري، **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، يناير ٢٠٠٦، ص ٤١٣.

(٦) محمد إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، تعريب عباس محمود ، بيروت: ١٩٨٥، ص ٧.،

(٧) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر: ١٩٨٥ ص ١٩-٢٠.

(٨) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص١٢٨.

يتضح مما سبق؛ أن مفهوم الحضارة وثيق الصلة بحركة المجتمع وفاعلية أفراده، سواء في إقلاعه في أجواء الرقي والازدهار، أو في هبوطه وتراجعه، ومن أجل ذلك ينبغي أن يتوفر فهم واع وفقه حضاري لكل من يتطلع إلى أن يعيد للأمة مجدها الحضاري، ويحقق لها ازدهارها المنشود.

في هذا الإطار، تأتي أهمية الدراسة الصادرة عن بن نبي والمسيري، والتي حاولا فيها أن يقدّما مقاربة للتجديد الحضاري المنشود.

درج أغلب الباحثين على اعتبار مالك بن نبي بمنزلة ابن خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر أولى عناية فائقة بالفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون، فهو من أرسى قواعد مدرسة التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر؛ حيث انفرد عن أقرانه من المصلحين بأنه درس مشكلات الأمة الإسلامية انطلاقا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة، فقد انصبت جهوده لبناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراسته المتميزة للمشكلات الحضارية عموما. يقول جودت سعيد: (وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ)[٩].

يعتبر مالك بن نبي بمنزلة ابن خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر أولى عناية فائقة بالفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون

إذا كان للأستاذ مالك بن نبي هذا الدور في لفت انتباه الأمة إلى مشكلتها الجوهرية بلغة عصرية لم تعهدها في السابق، فإن الدكتور عبد الوهاب المسيري فتح عهدا جديدا للأمة لكي تعي موقعها الحضاري، فعكف على دراسة الحضارة الغربية المهيمنة، هذا فضلا عن تتبعه على مدى عشرين سنة للظاهرة الصهيونية في عمق وخصوبة وموضوعية، وهو من حيث غزارة مادته العلمية المتخصصة لا يكاد يناظره مفكر مسلم آخر في العصر الحديث، وأسطع مثال؛ موسوعته الشهيرة التي تشبه مصنفات علماء الإسلام قديما إبان ازدهار الحضارة الإسلامية.

(٩) جودت سعيد، **مذهب ابن آدم الأول**، ص ١٤-١٥.

إن المتأمل في عنوان الموسوعة «**اليهود واليهودية والصهيونية**»؛ يحسب أن هذا العمل الموسوعي الضخم ألف فقط للحديث عن اليهودية والصهيونية، ولكن بتصفح لمتنه ندرك بأنه تأريخ عام لتاريخ الغرب، اعتمد المسيري في عمله هذا على كرنولوجية تاريخ الغرب، بحيث أنه أرخ لجميع النزعات الفلسفية التي سادت وتفشت في الغرب من القديم وصولا إلى العصر الحديث. وما بروز الحركة الصهيونية على مسرح الأحداث إلا نتاج طبيعي لحالة مزرية من الانحدار الغربي على كافة المستويات؛ نتيجة لانتصار نسق على آخر في داخل هذه الحضارة.

> موسوعة المسيري، ليست للحديث عن اليهود والصهيونية فقط، بل هي تأريخ عام لتاريخ الغرب؛ حيث أنه أرخ لجميع النزعات الفلسفية التي سادت في الغرب من القديم وصولا إلى العصر الحديث

أشير إلى أنني لا أقصد هنا تقديم دراسة وافية ومستفيضة للمشروعين، وإن كان يحدوني أمل الكتابة فيهما تفصيلا، فذلك يستدعي عدة عوامل موضوعية؛ في طليعتها المسح الشامل لكتابات المسيري وبن نبي، فللرجلين رصيد معتبر من الأبحاث حول الغرب، تنوء بها العصبة أولو العلم من المهتمين بدراسة الغرب، وغاية ما نرنو إليه في هذه الدراسة؛ هو بيان أحد أنماط الاهتمام بالدراسة العلمية للغرب ورصد معالمها وتقييمها.

ثالثا: معايشة الحضارة الغربية

ينطلق مالك بن نبي في تحليله للحضارة الغربية من معايشتها، وإن كتابه «مذكرات شاهد القرن» في حقيقته شاهد على هذه الحضارة بكل سلبياتها وإيجابياتها، صاغ فيه الأستاذ تجربته بأسلوب شيق أخاذ ينم عن دراية شاملة وعميقة لهذه الحضارة.

بدأت رحلة مالك بن نبي مع الحضارة الغربية منذ نعومة أظفاره، التحق بالمدرسة الفرنسية الابتدائية وتأثر بأستاذه مارتان **martin** الذي نقش في نفسه الذوق الرفيع وفن الكتابة، فانكب على دراسة الباحثين الغربيين أمثال بيار لوتي **pierre loti**، وكلود فاريا **claude fare**. ولا سيما بيار بورجي **pierre borjier** الذي كان له عظيم الأثر في أن يصقل مواهبه، وهو فتى يافع؛ ليتخلى عن بعض أوهامه وسذاجته.

ولقد كان لهذا الاتجاه أن يأخذ به، حسب رأيه، إلى أبعد الحدود، لولا دروس الشيخ مولود بن موهوب في التوحيد والسيرة، والشيخ بن العابد في الفقه؛ والتي كانت تصحح له من حين إلى آخر بعض المفاهيم والتصورات، فضلا عن دروس الشيخ عبد المجيد الذي كان يحلل فيها بعض وجهات نظره في انحراف المجتمع وتجاوزات الإدارة الفرنسية، وقد عزز ذلك كما يذكر في نفوسنا تأييدا وحماسة.

ومن الكتب الهامة التي اطلع عليها في تلك الفترة واعتبرها من الينابيع البعيدة المؤثرة والمحددة لاتجاهه الفكري، كتاب ''الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق'' لأحمد رضا، ورسالة ''التوحيد'' لمحمد عبده، وقد أمده ذلك بغنى الفكر الإسلامي عبر العصور.

لقد أسهم هذان الكتابان في تصحيح بعض التصورات التي كانت لديه، سواء فيما يتعلق بالمجتمع الإسلامي أو المجتمع الغربي، وحالا دون انسياقه في الرومانطيقية التي كانت شائعة آنذاك في صفوف ذلك الجيل من المثقفين الجزائريين(١٠).

(١٠) موسى لحرش، **مالك بن نبي، حياته ونتاجه الفكري**، مجلة مالك بن نبي، جامعة الأمير عبدالقادر قسنطينة الجزائر، جويلية ٢٠٠٦، ص ١٦-٤٠.

سافر بن نبي إلى باريس في شهر سبتمبر من العام ١٩٣٠، وفور وصوله سجل اسمه في قائمة الطلبة المعنيين بالمشاركة في امتحانات القبول بمعهد الدراسات الشرقية، ولظروف سياسية مُنع من الالتحاق بالمعهد. وفي هذه المدينة الفرنسية بدأ يتعرف، شيئا فشيئا هذه المرة وبصورة عملية، جوانب من حياة الأوروبيين، خاصة المجتمع الفرنسي، فهو يقول (لقد صفا الجو لاهتماماتي الاستطلاعية وتجولاتي الاكتشافية التي ساقتني ذات يوم إلى متحف الفنون والصناعات بقرب باب سان دونيس حيث وقفت تلك العشية أفكر لأول مرة في الجوانب التكنولوجية للحضارة وأنا أشاهد بين روائع المتحف القاطرة الأولى التي تحركت بالطاقة البخارية والطائرة التي عبر عليها بلير بحر المانش)[١١].

ولم يكن الأستاذ منطويا على نفسه، بل عمد إلى التواصل مع بعض الأسر الفرنسية البورجوازية، فيقول إنها كانت تكشف لي عن الحياة الأوروبية من الداخل في نطاق عائلي، بينما لم يكن في الجزائر يعرفها إلا من الخارج، حسب روايته.

وفي باريس تعرف صدفة على الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين التي تدار وتنظم شؤونها طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن مكان إقامة الأهل. وهكذا أصبح بن نبي عضوا مسلما يدعو إلى دينه بكل وضوح في هذه المنظمة، وقد أسهم ذلك في نظره كثيرا في تبادل الآراء وإثرائها؛ وذلك انطلاقا من قناعات ومواقف فكرية مختلفة.

أخفق بن نبي في الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية؛ لأن الدخول إلى هذا المعهد كان يخضع في نظره، خاصة بالنسبة لمسلم جزائري مثله، إلى مقياس غير علمي، يذكر ذلك بقوله: «لم تبد لي أية صعوبة في الاختبارات، ولكن كانت خيبة أمل، لم أنجح، وليس هذا كل ما في الأمر، بل لقد طلبني مدير المعهد، وفي هدوء مكتبه الوقور شرع يشعرني بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معهده، فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة إلى مسلم جزائري لمقياس علمي وإنما إلى مقياس سياسي».

التحق بعد ذلك بمدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء، وهناك أدرك أنه قد دخل هذه المرة إلى الحضارة الغربية من باب آخر بعد أن دخلها من باب وحدة الشبان المسيحيين الباريسيين، فالساعات التي كان يقضيها في الورشة لم تكن كما يقول: «مجرد لعب، بل كانت ممتلئة بشعور الوارد على دين جديد تجاوزا يقوم بطقوسه في معبد هذه الحضارة الآلية التقنية، ولم تكن أيضا تخلو من ملاحظات وبواكير لتفكير اجتماعي بدأت تخامر عقلي، فبينما تلك الأدوار البسيطة في يدي أشعر بأنها ليست لمجرد اللعب، بل هي دلائل على مقدار تطور المجتمع لأن المجتمع البدائي آلته اليد والإصبع».

---

(١١) مالك بن نبي، **مذكرات شاهد القرن**، بيروت: ط١، ١٩٧٠ ص ١٢.

لقد أثار ذلك فيه شغف البحث أكثر عن سبل تطوير مجتمعه والتحاقه بالركب الحضاري، وأثناء الفترة الدراسية انكب على تبادل الرأي مع زملائه الطلبة في الحي اللاتيني حول آراء عدد من المفكرين العالميين؛ أمثال نيتشه وسبينوزا، حتى تخرج سنة ١٩٣٥م مهندسا في الكهرباء.

كما عكف على مطالعة كتب بلزاك التي أمدته بمعلومات نفيسة عن حياة المجتمع الفرنسي عندما بدأت بعد العهد النابليوني انطلقاته في العهد الصناعي، لقد كانت هذه المطالعات وهذه الملاحظات وهذه الموازنات كلها كما يذكر حقلا خصبا للأفكار الاجتماعية الناشئة.

تزوج في عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م) من امرأة فرنسية أسلمت على يديه، وأسهمت زوجته في تنمية ذوقه وحسه الجمالي، ويعترف بن نبي بأن لزوجته الفرنسية الفضل في التجاوب مع محاسن الغرب الجمالية.

لبث ابن نبي في أوروبا أكثر من ثلاثين سنة، أعانته في إظهار ذاتيته وإيقاظ الشعور في نفسه وفكره وتحرره من قبضة الثقافة الغربية[١٢]، واستطاع أن يوسع شبكة علاقاته الفكرية والثقافية في باريس، فالتقى هناك بشكيب أرسلان وغاندي.

➢ إذا كان هذا شأن الأستاذ مالك بن نبي في معايشة الحضارة الغربية، فكيف كان حال الدكتور المسيري؟

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٢-١٠٩.

سافر المسيري إلى أوروبا طلبا للعلم عام ١٩٦٣ وعمره خمسة وعشرون عاما بعد حصوله على منحة للدراسة. التحق بجامعة كولومبيا، وهي كما يذكر المسيري جامعة عتيدة كانت تضم بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم، وبعد مرور سنتين من دراسته في تلك الجامعة؛ حصل على شهادة الماجستير، ثم التحق بجامعة رتجرز في مدينة نيوبرونزويك بولاية نيوجرسي وذلك للحصول على درجة الدكتوراه.

أكمل المسيري رسالته للدكتوراه في ٩ يونيو ١٩٦٧ بعنوان «الأعمال النقدية لوليام وردزوت ووولت ويتمان دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ» تحت إشراف الدكتور ديفيد وايمر.

من ألمع أساتذة المسيري الذين درس عليهم في أمريكا الدكتور ديفيد وايمر وليام فليبس، أستاذ النقد الأدبي، وهو من كبار المثقفين الأمريكيين اليهود، والبروفسور وليام كيلوج، أستاذ أدب العصور الوسطى.

ومن أهم المؤلفات التي ساعدت المسيري على بلورة مرجعيته ومنهجه التحليلي؛ كتابات كارل ماركس الإنسانية، وكتابات جورج لوكاتش، وروجيه جارودي، وماكس فيبر، وعلي عزت بيغوفيتش.

وأثناء إقامته في أمريكا؛ تعرف هناك إلى نخبة من المفكرين والأدباء، نذكر منهم الحاخام يوسف بيخر، وهو حاخام أرثوذكسي كان معاديا للصهيونية من منظور ديني، وكانت له مناظرات عديدة مع أقطاب الصهيونية، مع حاييم هرتزوج رئيس دولة إسرائيل السابق حينما كان رئيس وفد بلاده لهيئة الأمم المتحدة ، كما جادل الباحث البروفسور بن هاليرن عميد كلية الحقوق بجامعة تل أبيب عام ١٩٧٧م. التقى في أمريكا بكافين رايلي المؤرخ الأمريكي المشهور.

وقد مكث المسيري فترة طويلة مع الفكر الماركسي دامت قرابة ثلث قرن تقريبا ١٩٥٤-١٩٨٤م، تعمق خلالها في معرفة أحد أهم النماذج المادية المهيمنة على العالم في ذلك الوقت، من الداخل، تجسدت في رصد موطن القصور والضعف في هذا النموذج.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة الأدبية أتاحت للباحث دراسة تاريخ الفكر الغربي والمؤسسات الحضارية الغربية المختلفة، فكل مجتمع وكل أمة لها أدبها الذي يحمل فلسفتها وعاداتها وتقاليدها، كما يحمل في داخله الانسجام أو التوتر في علاقة الأديب بهذه التصورات والعادات، وقد أفاده ذلك في دراسة الجماعات اليهودية واكتشافه كثيرا من السمات التي تتميز بها باعتبارها سمات غربية تماما ولا تدل على الخصوصية اليهودية، كذلك يسرت له معرفة اللغة الإنجليزية –لغة الغالبية الساحقة من يهود العالم– قراءة المراجع الأساسية عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل والتنقل بين مكتباتها المختلفة، مكتبة الكونغرس، ومكتبة مدرسة اللاهوت اليهودية التابعة لجامعة كولومبيا(١٣).

معايشة بن نبي والمسيري للحضارة الغربية كانت عميقة ومتجذرة، لم تتجاوز السطحية والشكلية في دراسة الغرب فحسب بل تجاوزت حدود الافتتان والانبهار أيضا.

ولكن المسيري الذي ذهب إلى الولايات المتحدة في الستينيات لدراسة الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والأميريكي؛ ولج إلى العلاقة الخاصة بين الرومنتيكية والصهيونية والغرب، مما خلف نتاجا غزيرا يستشف فيه أنماط التفكير الغربي.

يتضح مما سبق أن معايشة بن نبي والمسيري للحضارة الغربية كانت عميقة ومتجذرة، لم تتجاوز السطحية والشكلية في دراسة الغرب فحسب بل تجاوزت حدود الافتتان والانبهار أيضا.

(١٣) المسيري، **رحلتي الفكرية**، ص ١٠٥–٣٩٠.

❁ **تميزت هذه المعايشة للحضارة الغربية من خلال ما يلي:**

➢ الدراسة العلمية والأكاديمية في المدارس والجامعات الغربية بلغاتها، فإذا كان عالم الأفكار عند مالك بن نبي لبس لبوس التفكير العلمي والرياضي، فإن المنظومة الفكرية للمسيري كستها النزعة الفلسفية العميقة، وهذا من شأنه أن يثري الخطاب الإسلامي ويغنيه.

➢ الانفتاح والتواصل مع الآخر، سواء كان من عامة الناس أو الخاصة من علماء وحكام.

➢ خلفت هذه المعايشة عن قرب للحضارة الغربية موقفا معرفيا واضحا حول الحضارة الغربية بتحليل القيم الأوروبية، ينتقد مالك الإصلاحيين الدينيين في عدم قدرتهم على فهم الظاهرة الغربية لأنه كان يحمل تصورا واحدا، فالكفر ملة واحدة "هذه فترة من تاريخ أوروبا وقد أصابها الانفصال في أوضاعها الأخلاقية والسياسية والاجتماعية، وهي الفترة المعاصرة لجبروت العصر الاستعماري، ولبوادر النهضة الإسلامية الأولى، وبهذه الدفعة المادية المزدوجة، دفعة البرجوازية، ودفعة البروليتاريا، تجلت أوروبا للعالم الإسلامي فأدرك نفوذها في تطوره الفكري والسياسي فهو لم يكتشف في أوروبا حضارة بل اكتشف فوضى، كانت تتعاظم داخلها الانفصاليات طبقا لعاملين كان لهما في هذا الشأن وزن كبير هما: سرعة النمو العلمي والتوسع الاستعماري".

إن النظام الذي خلق الفوضى في أوروبا، كما يذكر بن نبي، ذو صبغتين؛ فهو علمي واستعماري في آن، فإذا ما كان في أوروبا فكر بمنطق العلم، فهو إذا امتزج في العالم يفكر بعقلية الاستعمار.

وإلى هذا الاتجاه يذهب المسيري الذي يرى أنه حين كانت الظاهرة الغربية الحديثة تؤكد أنها حضارة إنسانية جعلت من الإنسان مركز الكون، وكانت المجتمعات الغربية مجتمعات لا تزال متماسكة من الناحية الاجتماعية والأسرية، ولم يكن كثير من الظواهر السلبية التي نلاحظها بأنفسنا ونقرأ عنها في صحفهم ومجلاتهم والتي أصبحت نمطا ثابتا وظاهرة محددة قد تأصلت بل كانت مجرد حوادث متفرقة لا ظواهر دالة ومن ثم كان من السهل تهميشها، ومن هنا كان دعاة الإصلاح كلهم ينادون بضرورة اللحاق بالغرب، ولم يكن هناك أصوات تعارض الحداثة أو تنتقدها، بل كان الجميع يُسبّح بحمدها، والمسيري يعذر أصحاب هذا الاتجاه فيعتبرهم محقين إلى حد كبير في هذا، فشكل الحداثة الذي أدركوه له سحر أخاذ.

ولكن مع مرور الوقت كما يؤكد المسيري ينكشف الوجه العدواني عندما أمطرتنا الحداثة الغربية بجيوشها الاستعمارية لتحول بلادنا إلى دمار شامل، ومصدر للمواد الخام والعمالة الرخيصة وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية، أما أولئك المنبهرون الذين حلوا بالعواصم الغربية فلم يروا سوى النور والاستنارة في الوقت الذي كانت المدافع الغربية تدك بلادنا دكا، أما هؤلاء الذين بقوا في بلادهم في آسيا وأفريقيا فقد عرفوا ألسنة النيران الملتهبة، وسمعوا دوي القنابل وشموا رائحة البارود(١٤).

➢ وبهذا تنكشف الملامح الحقيقية للحضارة الغربية عند مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري على سبيل المثال لا الحصر.

(١٤) المسيري، **دراسات معرفية**، ص ٣٥.

رابعا: تعدد الأنساق المعرفية الغربية:

كما بينا سابقا، ظل قصور بارز يطبع آراء حركات الإصلاح الدينية المعاصرة في فهم الحضارة الغربية فهما عميقا، حيث تمركزت نظرتهم حول النزعة العدائية التي راحت الحضارة الغربية تبثها ضد الشعوب والأجناس الأخرى، لذلك أولى المفكرون الإصلاحيون عناية فائقة بآراء المفكرين الغربيين الذين يتناولون بالنقد النظامين الرأسمالي والاشتراكي دون سواهما، أو يبرزون الوجه المظلم للحضارة الغربية مثل تفشي حالات الانتحار، والإدمان على المخدرات، والجرائم، وتفشي حالات الأمراض النفسية والعصبية، ناهيك عن نزوع الغرب نحو التسلح بامتلاك القنابل الكيميائية والنووية، وما يتهدد العالم من حرب مدمرة.

إن أهم مصائبنا اليوم؛ نابعة عن قصور في فهمنا لحقيقة هذه الحضارة وما تملكه، وقد لاحظ كل من مالك بن نبي والمسيري هذا القصور في فهم الحضارة الغربية وحذرا من عواقبه، فالغرب ليس مفهوما مطلقا بل هو مسألة نسبية، كما يقول مالك بن نبي، فإذا أدرك الفكر الإسلامي المعاصر هذا؛ فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيه، كما سيتعرف على عظمته الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات والمبادلات مع هذا العالم الغربي أعظم خصبا، بحيث تظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بمنوال تنسج عليه فكرها ونشاطها.

ونجد صدى هذا الكلام يتردد عند الدكتور المسيري في قوله: إننا إذا اكتشفنا أن الغرب نسبي وليس مطلقا، فستكون علاقتنا به مستريحة؛ يمكن أن نأخذ منه ما نريد ونرفض ما نريد. وليست المسألة كما عبر عنها سلامة موسى أو طه حسين من أن التحضر يعني أن نأخذه بحلوه ومره. لذلك كان لابد على الخطاب الإسلامي المعاصر أن يدرك أن الغرب ليس غربا مسيحيا، وإنما هو غرب وثني وعلماني وغنوصي ويوناني ونحوه، فهو يشكل مجموعة من الأنساق المعرفية، يطل نسق حينا ويختفي آخر، وهكذا دواليك.

وهذا الغرب في وعي كل من المسيري وبن نبي ليس كتلة واحدة متجانسة، بل هناك أكثر من غرب، فداخل الحضارة الغربية الحديثة توجد نماذج كثيرة؛ النموذج المسيحي، والنموذج الإنساني، والنموذج الاحتجاجي. لكن ما ساد تاريخيا هو النسق المعرفي المادي؛ تنظر المؤسسات السياسية والثقافية والغربية للواقع من خلاله وتتعامل مع ذاتها ومع العالم تحت مظلته.

الغرب في وعي كل من المسيري وبن نبي ليس كتلة واحدة متجانسة، بل هناك أكثر من غرب، فداخل الحضارة الغربية الحديثة توجد نماذج كثيرة

النزعة التقويمية:

نعني بالنزعة التقويمية للحضارة الغربية؛ ذلك الإدراك الواعي بحقيقة الحضارة الغربية من خلال إفرازاتها الحضارية المتعددة الأبعاد في العصر الحديث ومدى انعكاساتها على ذلك العصر.

إن معرفة على هذا المستوى تتطلب معايشة هذه الحضارة لفهم تركيبتها وأنماطها، وقد كان لكل من بن نبي والمسيري حظ وافر في معايشة هذه الحضارة، والفكر الإسلامي المعاصر في أمس الحاجة للاستفادة من هذه التجارب الحية بعيدة عن الأحكام المسبقة والمتشنجة.

في الغالب الأعم، يبدأ المسيري حديثه عن الحداثة الغربية بالتأكيد على ما يعتبره النموذج المهيمن في الحضارة الغربية، وهو نموذج مادي كموني يؤمن بأن الواقع المادي مرجعية ذاته، وأنه مكتف بذاته بحيث لا يحتاج إلى عوامل خارجية لتفسيره، ولكن في الحقيقة يستغرب الباحث من استبعاد المسيري للنماذج المعرفية الأخرى التي تتجاوز الفلسفة المادية، وسيادة هذا التصور لا تجعل المسيري يتحدث عن النموذج الغربي بشكل عام، باعتباره ظاهرة ثقافية حضارية شهدت اهتماما كبيرا بحرية الانسان.

النـزعة العدوانية

أظهر تيار التجديد الحضاري مهارة فائقة في تشخيص النفسية الأوروبية وفهم أغوارها، يتفق مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري على أن نزعة عدوانية تسري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين، وهي نتاج ترسبات لأحداث تاريخية. يشير إلى هذا المعنى الأستاذ مالك بن نبي في قوله «أما فيما يتصل بأوروبا فإن ما ألصقته القرون بعاداتها وصبغت به حياتها يشق على الاتجاه الجديد أن يعدل حرفه»، ويرجع مالك ذلك إلى النفسية المركبة للأوروبي من التراكمات التاريخية لعلاقة الأمم، وهنا فهو يرسي دعائم علم جديد في فلسفة التاريخ، علم نفس المجتمعات. يتحدث فيه عن ظاهرة تخلف الضمير وعدم مواكبته لتقدم العلم. تخلف الضمير في نموه عن العلم وعن حركة الفكر. فما الضمير إلا تلخيص نفسي للتاريخ، وخلاصة لأحداث الماضي منعكسة على ذات الإنسان، فهو بلورة للعادات والاستعدادات والأذواق.

> يتفق بن نبي والمسيري على أن نزعة عدوانية تسري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين، وهي نتاج ترسبات لأحداث تاريخية

وهنا يتحدث مالك عن الغرب الاستعماري، وأن العدوان والعنصرية متأصلة فيه، ومن ناحية أخرى لا بد أن نبين للناس –أيضا– أن المنظومة الحداثية مرتبطة بالاستهلاكية والتوجه نحو اللذة. وقد استطاع الإنسان الغربي أن يحقق معدلات عالية من الاستهلاك واللذة، مرة أخرى، عن طريق النهب الاستعماري، تلكم مأساة الحضارة الحديثة في عمقها كما يذكر بن نبي؛ فإن الضمير الحديث لم يتمثل بعد أغلب ما حققه العلم من مخترعات كما أكد مالك بن نبي أن خطر هذه النزعة يلحق أضرارا بالغة للحضارة.

إن هذا الاتجاه لا يحصر خطر هذه النزعة على الإنسان المسلم فحسب، وإنما خطرها يمس الإنسان من حيث هو إنسان، حتى الإنسان الغربي يلاحقه خطرها، هذا ما أقره الأستاذ بن نبي، فالاستعمار إذا كان قد ألحق ضررا بليغا بالبلدان المستعمرة فقد أضر كذلك بالحياة الأوروبية ذاتها، لأن الاستعمار الذي يهلك المستعمرين ماديا يهلك أصحابه أخلاقيا.

الاستعمار إذا كان قد ألحق ضررا بليغا بالبلدان المستعمرة فقد أضر كذلك بالحياة الأوروبية ذاتها، لأن الاستعمار الذي يهلك المستعمرين ماديا يهلك أصحابه أخلاقيا.

وهنا يدق مالك بن نبي ناقوس خطر الحضارة الغربية على العالم إذا استفزت أفكارها وأساطيرها لأن أثره عالمي، كما يؤكد مالك أن التهور الأوروبي تهور ذو دوي وضجيج، بل إن الأساطير الأوروبية نتائجها وخيمة ومهلكة، لأن المادة في قبضتها تتصرف فيها كما تشاء، وما دام الأمر كذلك فيوشك أن تهدم كل شيء بطريقة علمية، فتنسف بقنابلها الذرية البلاد والعباد(١٥)، وخير دليل على هذا الكلام؛ العربدة الأمريكية على العراق وما خلفته من دمار شامل، لذلك فنزوة عاطفية مهما علت ليس بإمكانها مواجهة حضارة بهذا الزخم العلمي والترسانة العسكرية الهائلة.

والدكتور عبد الوهاب المسيري كشف النقاب عن هذه النزعة العدوانية التي لم تنته بمجرد خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية بل إنها صفة متأصلة فيه، وما العربدة الأمريكية ضد العراق سوى تعبير عن إدراك المؤسسة الحاكمة الأمريكية لهذه الحقيقة، فهي ترغب في بسط هيمنتها على مصادر الموارد الطبيعية في عالم تتناقص فيه هذه الموارد؛ حتى يمكنها الاحتفاظ للإنسان الأمريكي بمعدلاته الاستهلاكية العالية(١٦).

(١٥) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٤١.

(١٦) المسيري، **دراسات معرفية**، ص ٣٥.

وتبعا لما سبق، يرى المسيري أن الإبادة النازية هي واحدة من أبرز الإفرازات السيئة للحداثة الغربية في مرحلة الصلابة، ولا يعتبرها مسألة يهودية أو مشكلة ألمانيا، والأهم من ذلك والأخطر في الوقت نفسه؛ هو تأكيد المسيري على أنها نتاج طبيعي للرؤية الحضارية الغربية، وليست انحرافا عنها؛ لأن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية الشمولية والمنفعة المادية والداروينية، وفلاسفة العرقية الحديثة هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادة وصلت إلى قمتها في اللحظة النازية.

ولا يشك باحث في أن السياسة الدولية الغربية الراهنة، إنما منشؤها ومصدرها هو الإرث الفلسفي الغربي الضارب جذوره في عصر التنوير، وهو عصر تميز بكونه نسقا فكريا عاما مرتكزا على عدد من الأدبيات الأساسية.

يرى المسيري أن الإبادة النازية هي واحدة من أبرز الإفرازات السيئة للحداثة الغربية، ولا يعتبرها مسألة يهودية أو مشكلة ألمانيا، والأهم من ذلك تأكيده على أنها نتاج طبيعي للرؤية الحضارية الغربية، وليست انحرافا عنها

إن استحضار أدبيات الفلسفة الغربية الحديثة يدخل ضمن الحديث عن المقاربة الإبستيمولوجية بينها وبين التطرف والعنصرية، وهي تشكل بنية معرفية نسقية تتحكم فيها الاعتبارات الذاتية بجانب الاعتبارات الوضعية. وعلى هذا الأصل نتحدث في تاريخ الفلسفة الغربية عن فلسفات واتجاهات مذهبية، أفرزت عددا من الرؤى المتطرّفة التي أدت إلى ممارسة الإرهاب الفعلي، وليس أدل على ذلك من اعتبار البشر الآخرين غير الغربيين مجرّد سلع انتهت صلاحيتها، واعتبارها نفايات تستدعي التخلص منها على غرار مختلف السلع التي تلاقي هذا المصير.

ويمكن القول، إن بداية هذا النقد والرفض على حد سواء، في مستواه النظري والفلسفي، كان مع الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في القرن التاسع عشر، ودعم هذا التوجه النقدي للحداثة ومشروع التنوير آراء الفيلسوف الوجودي مارتن هيدغر، وتعزز مع أنصار نيتشه وهيدغر من الفلاسفة المعاصرين أمثال فوكو ودريدا وليوتار.

ولا نشك في مدى تأثر كل من المسيري وبن نبي ببعض الشخصيات الغربية الناقدة للفلسفة الغربية وجذورها الفكرية.

النـزعة العلمية:

رغم النزعة العدوانية التي طبعت الحضارة الغربية في تعاملها مع المجتمع الإسلامي، لا يمكن لهذا المجتمع أن يغض الطرف عما تميزت به هذه الحضارة من نزعة علمية، يقول مالك بن نبي «فإذا ما أدرك العالم الإسلامي أن صدق الظواهر الأوروبية مسألة نسبية، فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيها، كما سيتعرف عظمتها الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات والمبادلات مع هذا العالم الغربي أعظم خصبا، بحيث تظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بنموذج تنسج عليه فكرها ونشاطها».

ومالك بن نبي يدعو إلى تفكيك أنساق هذه الحضارة؛ ليتيح لنا أن نقف أمام نظام أوروبا كإنسان لا كمستعمر، وبذلك تنشأ حالة من التقدير المتبادل، والتعاون المثمر، بدلا من تلك العلاقة المادية الجافة التي تنبعث من علاقة أوروبا المستعمرة بالعالم الإسلامي القابل للاستعمار. هكذا ظل يدعو إلى ضرورة الاطلاع على الفكر الغربي العقلاني منه.(١٧)

يكمن الرصيد الحضاري للغرب وتفوقه في ثلاث كلمات: العلم والتقدم والحضارة، فقد خطت منها أفكارا مقدسة سمح لها أن ترسي داخل حدودها قواعد حضارة القرن العشرين وأن تبسط خارج حدودها سلطتها على العالم، زودتها بالفعالية. بالإجمال فإن أوروبا ركبت في مضمون ثقافتها مزيجا من الأشياء والأشكال التقنية والجمالية.(١٨)

إلى جانب دعوة مالك بن نبي إلى الاستفادة بالتقنية الغربية، يهيب بالأمة أن تأخذ بالجانب الجمالي الذي يميز هذه الحضارة، فهو لا يجد حرجا في الاعتراف بفضل زوجته الفرنسية التي أيقظت في نفسه الحس الجمالي والذوق الرفيع. ويبدو هذا متشابها عند الدكتور المسيري عندما لاحظ أحد الصحافيين أثناء حواره للمسيري طريقة تصميم المنزل حيث إن غرفة الطعام كانت على الطراز الإنجليزي لكي يشير إلى أن في الغرب حضارة إنسانية أيضا.

إن العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة وانطواء، فليس الهدف أن يقطع علاقته بحضارة تمثل وتشكل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها.

---

(١٧) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٣٧-١٤٧.

(١٨) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص ١٠٢.

وحرصا من المسيري على الاستفادة من الرؤية العلمية للغرب؛ يرفض نظرية المؤامرة التي لا تستند لقواعد علمية واضحة، ويؤكد أن ثمة مخططات، ولكن النظرة التآمرية بالاكتفاء بها وحدها في تفسير التاريخ؛ تتجاهل التفاصيل والتاريخ وتؤبد المؤامرة، كما رفض المقولات اللفظية الشائعة والصور النمطية السائدة والصيغ المسبقة الجاهزة، ولذلك يشيد المسيري بإنجازات الحضارة الغربية التي نجد لها صدى كذلك عند مالك بن نبي ومن أهمها:

إن العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة وانطواء، فليس الهدف أن يقطع علاقته بحضارة تمثل وتشكل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها

- ❖ الإدارة الرشيدة في تسيير مجتمع عن طريق مؤسسات اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية قادرة على حل المشاكل العويصة وتسوية النزاعات والتصدي للأزمات دون الرجوع إلى العنف، وعلى وضع المخططات التي تضمن رفاهية المجتمع واستمراره.
- ❖ نجاحه في حل مشكلة التداول على السلطة بدون عنف أو سفك الدماء.
- ❖ احترام حقوق الإنسان السياسية وتأكيد حرية الفرد.
- ❖ تكوين دولة الرفاه التي تضمن للإنسان الحد الأدنى من احتياجاته الضرورية في شكل نظام صحي ونظام تعليمي.
- ❖ تفعيل دور المرأة وتأكيد حيزها المستقل.
- ❖ بناء العقلية النقدية التي أثمرت قدرات إبداعية خلاقة.
- ❖ تطوير مناهج البحث بما يستجيب لمتطلبات المجتمع المتسارعة.
- ❖ إنشاء المؤسسات الكبرى من خلال اندماج مختلف الشركات، وكذا اتحاد الدول المختلفة في تكتلات سياسية أو اقتصادية رغم اختلاف مذاهبها الدينية ولهجاتها.

كما يؤكد المسيري وبن نبي على أنه يجب عدم التقليل من قيمة الإبداع الفردي الغربي، فهي إبداعات مهمة وإسهامات حقيقية للتراث الإنساني، والمسيري يهيب بالأمة ألا تقتصر على استلهام هذه التجربة، بل ينبغي أن تستفيد من بلدان أخرى كالصين.(١٩)

(١٩) **دراسات معرفية**، ص ٦٨-٨٧.

في الختام

يمكن التأكيد على أن ما يسعى إليه هذا البحث؛ هو لفت الأنظار وشحذ الهمم نحو دراسة علمية للغرب، ولم يعن بالدراسة النقدية والملاحظة المنهجية للمشروعين، وإن كنا ندرك حجم هذه الانتقادات وأهميتها، لكن بحسب البحث أنه أخذ على عاتقه الاستشعار بأهمية القراءة العلمية للغرب عند نخبة من المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ونصب الحديث عن مشروعين كان لهما بالغ التأثير وما زال في عالمنا الإسلامي، وإن كنا نعترف بأنه ليس هناك عمل علمي رصين يرتقي إلى مصاف الدراسات الاستراتيجية التي نتطلع إليها في دراسة الغرب، وفي المقابل لا يمكن لنا أن نغمط الناس حقهم، أو أن نبخسهم بضائعهم، وقد كانت جهودا فردية تحكمها ظروف تاريخية شديدة التعقيد، بل نرى أن ما قدمه أقطاب المدرسة التجديدية الحضارية من أمثال، محمد إقبال، وإسماعيل الفاروقي، ومحمد عبد الله دراز، وبن نبي، والمسيري، يشكل أرضية للانطلاق نحو تأسيس **علم الاستغراب**.

والمسيري نفسه يعترف بأن عملية تجريد النموذج المعرفي الغربي لا يمكن أن تكون عملية فردية، فهي بحاجة إلى عملية جماعية مؤسسة، ونهيب بالجامعات والمؤسسات البحثية في عالمنا الإسلامي الأخذ بمسؤولياتها في إثراء الوسط البحثي والأكاديمي بدراسات علمية رصينة حول الغرب، تتجاوز نمط التعاطي النرجسي الساذج، المسكون بالهجاء والرفض.